" ناصرُ الدّينِ الأسدِ: رؤىً ومواقفُ، تعريبُ التَّعليمِ الجامعيِّ نموذجاً " (١٩٢٢م-٢٠١٥م)

عمَّار عبد القادر محمَّد شبلي

الملخص

تحملُ هذه الورقةُ رؤيةَ ناصر الدين الأسد في تعريب التعليم الجامعيّ، وأهمية ذلك في نهضة الأمَّة، إذْ يُعدُّ اللغةَ مكوناً أساسياً من مكونات هُوية المجتمع، ويرى أنَّ الأممَ لا تنهضُ إلا بلغاتها، وأنَّ اللغةَ العربيةَ جديرةٌ بذلك، وسبقَ لها وأنْ كانتْ وحدَها لغةَ الفلسفة ولغةَ العلم النظريَّ والتطبيقيّ، ويقولُ إنَّ العربيةَ كانت الوسيطَ لنقل علوم الإغريق والعرب والمسلمين إلى أوروبا، واستشهدَ بأقوال بعض العلماء الغربيين الذين أدركوا مكانةَ العربية ودورَها في العلم، كان منهم روجر بيكون.

وتبينُ الورقةُ الصعوبات والمخاطرَ التي تواجهُ اللغةَ العربيةَ في الحاضر والمستقبل، وتتمثلُ في العولمة الثقافية، والتشكيك في قدرتها على الوفاء بمطالب العلم الحديث و متغيرات العصر، ثم يقدمُ الأسدُ ردوداً على هذه الدَّعوات، وينادي باعتماد العربية لغةً رسميةً في التدريس الجامعيّ، ولا تعني دعوتُه إلى العناية باللغة القومية إهمالَ اللغات الأجنبية، بلْ يدعو إلى الاهتمام بهذه اللغات؛ لأنها النافذةُ إلى الثقافة العالميَّة.

تمهيـــد

تبقى اللغاتُ عرضةً للتَّذبذب في قوّتها وضعفها جرّاءَ تداخل المعارف، والتَّغيُّرات المستمرَّة التي تصيبُ المجتمعات في علومها وثقافتها وفكْرها وتقاليدها، وتظلُّ قوّةُ الانتماء إلى اللغة تحميها من الانزواء والتّهميش، فاللغةُ كائنٌ حيٌّ يزدادُ نشاطُه إذا وُظّفَ في البحث العلميّ والتّدريس الجامعيّ. واللغةُ العربيّةُ واحدةٌ من اللغات التي قد لا تكونُ بمنأىً عن هذه المخاطر، رغمَ قوّتها وتعدّد أبنيتها وتراكيبها؛ لأنّ إسهامَ العالم العربيّ في الحضارة الإنسانيّة في هذا العصر مازالَ متواضعاً وفرديّاً يفتقدُ الاحتضانَ والرّعايةَ الرّسميّةَ الكافيةَ، ولم يرتقِ جماعيّاً إلى مستوىً عالٍ يصلُ إلى حدِّ تنافس الدّول المتقدّمة ومزاحمتها، ويُعزى ذلك إلى إقصاء اللغة العربيّة من التّعليم الجامعيّ، ولا سيَّما في العلوم التطبيقيّة، وإقصائها من سجلات الوزارات المختلفة ونماذجها، والخطأُ الإملائيُّ متفشٍّ، والانزلاقُ النحْويُّ حاضرٌ لا يبرحُ صفحات المجلات والجرائد، وتمَّ إقصاؤها أيضاً من صياغة اللوائح والأنظمة والقوانين وعمل المحاكم بدرجاتها المختلفة، ومن ملصقات الدِّعاية والإعلانات للشركات والمصارف والمطاعم، ومن يافطات الدّكاكين والأسواق، وغير ذلك من الأسباب التي لا حصرَ لها.

تعريبُ التعليم الجامعيِّ

يعرِّفُ الأسدُ تعريبَ التّعليم الجامعيِّ بقوله " تعبيرُ تعريب العلوم يعني: أنْ نجعلَ العلومَ عربيّةً، وذلك بأنْ يكونَ لنا إسهامُنا الحقيقيُّ في تطوير العلم، وفي الابتكار والاختراع، وأنْ نواكبَ أحدثَ ما وصلَ إليه العلمُ في هذا المضمار، ثمَّ نحاولُ أنْ يكونَ لنا جهدُنا الخاصُّ الذي يضيفُ إلى المعرفة العلميَّة العالميَّة" (١).

وهذا التَّعبيرُ كثيراً ما يستخدمُ مكانَ التَّعبير الصّحيح الآخَر وهو استعمالُ اللغة العربيّة في التّدريس ... وإنَّ استخدامَ الإنجليزيّة في التّدريس يجعلُ أكثرَ الطلبة مترددّينَ في توجيه الأسئلة، أو تقديم الإجابات للأسئلة الموجَّهة، وذلك لضعفهم في هذه اللغة (٢).

ويَعيبُ أحياناً نفَرٌ منّا اعتمادَ اللغة العربيّة بعضَ المصطلحات الأعجميّة، ويعدُّها انتقاصةً في حقِّ اللغة؛ ولكنَّ الأصلَ أنْ يبقى المصطلحُ - كما قالَ الأسدُ - لأصحابه؛ لأنّهم مَن وضعوه، وهم أصحابُ المُنْجَز، ولا عيبَ أنْ نستوردَ المنجزَ مع المصطلح، وليسَ بالضّرورة أنْ يكونَ دالاًّ على الوظيفة(٣).

ويرى أنَّ قضيةَ المصطلحِ العلميِّ " ليستْ قضيّةً لغويّةً بقدْرِ ما هي قضيَّةٌ علميَّةٌ حضاريَّةٌ"(٤). فهناكَ مصطلحاتٌ تكونُ رمزاً لشيءٍ ما كما هي الحالُ مع الصُّورةِ أو الشِّعارِ.

ويمكنُ أنْ نرى أجواءً إيجابيّةً - لدعوةِ الأسدِ إلى التَّعريبِ - في حديثِ صلاحِ جرَّارٍ " وقد كانتِ اللغةُ العربيّةُ في مؤسساتِ التعليمِ العالي كافَّةً، وفي وزارةِ التعليمِ العالي عندما كانَ الدُّكتورُ الأسدُ رئيساً للجامعةِ الأردنية، ووزيراً للتعليمِ العالي تشهدُ ازدهاراً وتألقاً، حتَّى إنَّ كثيراً منْ أساتذةِ الكليّاتِ العلميّةِ كانوا يُعنونَ بالعربيّةِ، ويدرِّسونَ بها، ويدافعونَ عنها، ومنهم الدُّكتورُ همّامُ غصيب، والدُّكتورُ عادلُ جرَّارٍ والدُّكتورُ عبدُ المجيدِ بصير، والدُّكتورُ محمّدُ زكي خضر، والدُّكتورُ قنديلُ شاكر، والمرحومُ الدُّكتورُ أحمدُ سعيدان، وسواهم كثيرون" (٥).

وأشارَ صلاحُ جرّار إلى أنَّ بعضَ هؤلاءِ المدرّسينَ تبنَّى الدّعوةَ إلى التّعريبِ، منهم عادلُ جرّار من خلالِ كتابِه (تعريبُ العلوم: دراساتٌ ومقالات) الذي رأى فيه أنَّ تدريسَنا بغيرِ العربيّةِ يجعلُ المتحدّثَ لا يعبّرُ بشكلٍ صحيحٍ عمّا يتحدّثُ بشأنه، ولا ينجحُ في نقلِ المفاهيمِ العميقة، وبالتّالي يتلقى السّامعُ منه محصولاً ناقصاً لا يصلحُ للتّمثّلِ والإبداعِ (٦).

إسهامُ اللغةِ العربيَّةِ في الحضارةِ الإنسانيَّةِ

لقد كانَ للعربِ المسلمين إسهامٌ كبيرٌ في رفْدِ الحضارةِ الإنسانيّةِ بالعلومِ والمعارفِ، وينوّه الأسدُ إلى أنَّ الفكرَ المنهجيَّ الغربيَّ في البحثِ الأدبيِّ والعلميِّ: النّظريِّ والتّطبيقيِّ، هو حلقةٌ من سلسلةِ سبقتْه. كما أسهموا في تطويرِ العقلِ الغربيِّ ومنهجِه، ولا سيّما عندما بدأَ المنهجُ التّجريبيُّ على يدِ روجر بيكون الذي أخذَه عن أساتذتِه العربِ في الأندلسِ (٧).

ويذكرُ الأسدُ أنّ اللغةَ العربيّةَ على مدى قرونٍ كانتْ لغةَ العلمِ، وعلمُ الإغريقِ لم يصلْ إلى أوروبا باللغةِ الإغريقيّةِ؛ لأنّه ضاعَ، ووصلَ إليهم باللغةِ العربيّةِ، وبعضُ العلماءِ الأوروبيّين قرؤوا كتبَ العلمِ عندهم بالعربيّةِ، حيث قالَ روجر بيكون: لا تستطيعُ أنْ تتعلمَ العلمَ إلا بالعربيّةِ، ولا تتعلمَ الفلسفةَ إلا باليونانيّةِ (٨).

ويرى الأسدُ أنَّ الدّولةَ لا تنهضُ بغيرِ لغتِها، ويمكنُ تفسيرُ ذلك بأنَّ النّهضةَ عندَه هي نهضةٌ علميّةٌ فكريّةٌ، وليستِ اقتصاديّةً؛ لأنَّ من السّهلِ أنْ نجدَ في معظمِ بقاعِ الأرضِ أقطاراً قويّةً في اقتصادِها؛ لكنها مستوردةٌ لإنجازاتِ العلومِ والتكنولوجيا دونَ درايةٍ كافيةٍ بأنظمةِ تشغيلِها وإصلاحِها؛ وذلكَ بفضلِ اعتمادِها المطلقِ على الاستهلاكِ والتلقي، بينما اليابانُ نهضتْ بلغتِها، وكذلك ألمانيا وفرنسا، ومن الطبيعيِّ إذا استوردْنا اللغةَ في علومِنا سنستوردُ المنجزَ.

وفي إحدى المحاضراتِ أثناءَ دراستي للدّكتوراه أملى علينا أدلَّةً أخرى تثبتُ قوّةَ اللغةِ العربيّةِ، وحيويَّتَها عندما قالَ بأنَّ الطبَّ والهندسةَ في جامعاتِ الشَّامِ يُدرَّسانِ بالعربيَّةِ، وقد نافسَ خريجوها الكثيرَ من نظرائِهم في أعتى الجامعاتِ الأوروبيَّةِ والأمريكيَّةِ، كما درَّستِ الكليَّةُ البروتستانتيَّةُ السُّوريَّةُ هذه العلومَ بالعربيَّةِ، وكان يرأسُها فانداك، الذي أتقنَ العربيَّةَ، وهو أمريكيٌّ من أصلٍ هولنديٍّ، وعندما تغيّرَ اسمُها إلى الجامعةِ الأمريكيَّةِ، وفُرِضَ آنذاك التعليمُ فيها بالإنجليزيَّةِ قدّمَ استقالتَه احتجاجاً على ذلك.

وأكّدَ الأسدُ أنَّ "الواقعَ العمليَّ يدلُّنا على أنَّ التّدريسَ باللغةِ الإنجليزيّةِ في العلومِ لم يهيّئْ للعربِ أنْ يكونَ لهم إسهامٌ في الحضارةِ الإنسانيّةِ (٩).

محنٌ ومخاطرُ

لقد تعرّضتِ اللغةُ العربيَّةُ إلى محنٍ وتجاربَ كثيرةٍ واجتازتْها، وتمثلَ أوَّلُها، بتلكَ التَّجاربِ التي واجهتْ توسُّعَ الدّولةِ الإسلاميّةِ، وانتشارَ العربِ في بقاعٍ مختلفةٍ بينَ أجناسٍ ولغاتٍ متعدِّدةٍ، ومنْ نتائجِ ذلكَ أنْ تعلّمَ غيرُ العربِ هذه اللغةَ وأتقنوها وألّفوا فيها، وأصّلوا لبعضِ علومِها، وننوِّه إلى أنَّ اللغةَ العربيّةَ آنذاك كانتْ وحدَها لغةَ الفلسفةِ، والعلمِ النظريِّ والتطبيقيِّ. كما كانتِ الوسيطَ – كما سلف – لنقلِ علومِ الإغريقِ والعربِ والمسلمينَ إلى أوروبا(١٠).

أمَّا المحنةُ الثانيةُ فقدْ كانتْ أواخرَ الحُكمِ التُّركيِّ عندما أخذَ يعلّمُ العربيّةَ من خلالِ اللغةِ التركيّةِ. وعملَ هذا الحُكمُ على إقصاءِ العربيّةِ من التّدريسِ، وإحلالِ التركيّةِ مكانَها، وجعْلِ قراءةِ القرآنِ والصّلاةِ باللغةِ التركيّةِ في الولاياتِ الخاضعةِ له(١١).

ومن المخاطرِ الحاضرةِ والمستقبليّةِ التي يراها الأسدُ، العولمةُ، ولا سيّما العولمةُ الثقافيّةُ التي أصبحتْ تُهَدِّدُ دولاً قويَّةً كانتْ تسعى إلى نشرِ لغتِها وثقافتِها، وتُهَدِّدُ اليومَ في فكْرِها ولغتِها. ويسوقُ مثالاً آخرَ على هذه المخاطرِ، وهو الدّعواتُ التي بدأتْ

في مصرَ ولبنانَ منذُ القرنِ التّاسعِ عشر واستمرّتْ إلى يومِنا هذا، وهي التّشكيكُ في قدرةِ اللغةِ العربيّةِ على الوفاءِ بمطالبِ العلمِ الحديثِ، ومتغيراتِ العصرِ (١٢).

وانْبرى ناصرُ الدّينِ الأسدِ للرّدِّ على هذه الشّكوكِ؛ لأنّه اعتبرَ الأمّةَ بغيرِ لغةٍ أمّةً بغيرِ وطنٍ، ورأى ما قامَ به محمدُ علي باشا الذي حكمَ مصرَ خيرَ دليلٍ لتفنيدِ هذه الدّعواتِ، حيثُ استشعرَ عروبتَها وقيمةَ لغتِها، فكانَ يفرضُ على كلِّ طالبٍ يُبْتَعَثُ إلى أوروبا أنْ يترجمَ إلى العربيَّةِ كتاباً واحداً على أقلِّ تقديرٍ من الكتبِ التي درسَها في الغربِ، وكانتْ في علومٍ مختلفةٍ، كالطبِّ والهندسةِ، وقد استُخدمتْ لاحقاً؛ لتكونَ مراجعَ للتّدريسِ باللغةِ العربيَّةِ(١٣).

ويشدِّدُ الأسدُ على أهميَّةِ الاتصالِ والتواصلِ بالثقافاتِ الأخرى بغيةَ الحفاظِ على تقدُّمِ الأمّةِ وتطوُّرِ لغتِها، ويرى إذا " لمْ تتصلْ إحدى الثقافاتِ بثقافاتِ عصرِها المتعددةِ، وبروائعِ الأعمالِ الفكريَّةِ والأدبيَّةِ والفنيَّةِ العالميَّةِ في العصورِ السابقةِ، واكتفتْ باجترارِ نفسِها ذَبُلتْ وضَعُفتْ وقَصَّرتْ عن أنْ تؤدِّيَ رسالتَها نحوَ نفسِها، ونحوَ الإنسانيَّةِ. فالشأنُ هنا هو شأنُ التواصلِ والتبادلِ والتفاعلِ، وليسَ مجرَّدَ اتصالٍ من جانبٍ واحدٍ. ولقد كانتِ الثقافةُ العربيَّةُ من الجاهليَّةِ وخلالِ العصورِ الإسلاميَّةِ ثقافةً منفتحةً على غيرِها من الثقافاتِ، أخذتْ منها دونَ تردُّدٍ ولا شعورٍ بالنقصِ"(١٤)، ثمَّ استشهدَ بقولِه تعالى" يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لتعارفوا..." (١٥).

وعرضَ إلى انتشارِ اللغةِ العربيَّةِ وثقافتِها في آسيا وأجزاءٍ من إفريقيا وأوروبا بقولِه " لا يزالُ يحتاجُ إلى مزيدٍ من الدراسةِ المنصفةِ لبيانِ وسائلِ هذا الانتشارِ، ولبيانِ مدى التأثرِ والتأثيرِ بينها وبين غيرِها من ثقافاتِ تلكَ البلادِ ولغاتِها" (١٦)

وللتخفيفِ من المخاطرِ التي تتربَّصُ باللغةِ العربيَّةِ يدعو الأسدُ النخبةَ والمثقفينَ العربَ لدعوةِ الأمَّةِ إلى" الأخذِ بأسبابِ الحضارةِ الحديثةِ، ودخولِ عصرِ التحضيرِ والتحديثِ بالرجوعِ إلى المنهجِ الفكريِّ، وأساليبِ البحثِ العلميِّ واعتمادِ العقلِ، والتحررِ من الخرافاتِ والأباطيلِ والأوهامِ، والثقةِ بكرامةِ الإنسانِ ومنزلتِه وقدرتِه...والحضارةُ الحديثةُ ذاتُ منبعٍ ومصبٍّ، أمَّا منبعُها فمصادرُها وأسبابُها ومناهجُها، وأمَّا مصبُّها فنتائجُها ومظاهرُها من التقدمِ العلميِّ والتكنولوجيِّ وما نجمَ عنه من المنجزاتِ الماديَّةِ المختلفةِ " (١٧).

التَّعريبُ واللُّغاتُ الأجنبيَّةُ

لا يُفهمُ من دعواتِ ناصرِ الدّينِ الأسدِ إلى التّعريبِ الجامعيِّ أنّه يدعو إلى مقاطعةِ تعلمِ اللغاتِ الأجنبيّةِ، فهو على عكسِ ذلك؛ بلْ من المتشدّدينَ في هذا الأمرِ، حيث أشارَ " إلى ضرورةِ أنْ يتسلحَ الطلبةُ والعلماءُ بلغةٍ أجنبيَّةٍ واحدةٍ على الأقلِّ، الإنجليزيَّةِ أو الفرنسيَّةِ أو حتّى الألمانيَّةِ، فنحنُ لا ندعو إلى استخدامِ اللغةِ العربيّةِ في التّدريسِ الجامعيِّ والبحثِ العلميِّ حتّى ننعزلَ عن العالمِ، وإنَّما من أجلِ أنْ نشاركَ مشاركةً حقيقيّةً في التَّطوُّرِ العلميِّ، وفي الحضارةِ الإنسانيّةِ، وهذا لا بدَّ من لغةٍ أجنبيَّةٍ نتقوَّى بها؛ ولكنْ لا تكونُ على حسابِ لغتِنا الوطنيَّةِ " (١٨).

وفي محفلٍ آخرَ يكرِّرُ هذه الدَّعوةَ بقولِه " لا بدَّ من تكرارِ التَّنبيهِ الذي ننادي به دائماً، وهو أنَّ العنايةَ باللغةِ القوميَّةِ لا يعني - بأيِّ حالٍ- إهمالَ اللغةِ الأجنبيَّةِ أو إضعافَها؛ بلْ لا بدَّ من العنايةِ بها؛ لأنّها النافذةُ إلى الثقافةِ العالميَّةِ؛ ولأنّ معرفتَها وإتقانَها يُعينانِ على التَّبحُّرِ في اللغةِ العربيَّةِ نفسِها"(١٩).

وينادي الأسدُ إلى عدمِ اكتفاءِ المثقفِ عربيًّاً كان أمْ أعجميًّاً " أنْ يكتفيَ بما عندَه، وأنْ يدعوَ إلى الانغلاقِ الثقافيِّ، فعندَ غيرِنا كثيرٌ ممَّا نحتاجُ إليه منْ روائعِ الآدابِ والفنونِ؛ ممَّا يضيفُ إلى فكرِنا فكْراً، ويفتحُ نفوسَنا وعقولَنا على آفاقٍ رحبةٍ وعوالمَ متجددةٍ، فيكونُ – مع كنوزِنا النفيسةِ من التراثِ اللغويِّ والنثريِّ والشعريِّ والفلسفيِّ والموسيقيِّ والفقهيِّ- وسيلةً للتواصلِ والتبادلِ بين الثقافاتِ الإنسانيةِ، وللتعارفِ والتفاهمِ بين الشعوبِ، وإشاعةِ روحِ التقاربِ والسلامِ العالميِّ" (٢٠) .

أمَّا الاستمرارُ في اعتمادِ اللغةِ الأجنبيّةِ في التّدريسِ فهو "من أسبابِ حصْرِ العلمِ في دائرةٍ ضيّقةٍ من المتخصّصينَ الذين يفكّرون- من خلالِ تلك اللغةِ- بعقليّةِ أهلِها دونَ انتماءٍ لقومِهم، ودونَ القدرةِ على إيجادِ مُناخٍ علميٍّ عامٍّ في الأمَّةِ يساعدُ على بناءِ القاعدةِ العلميّةِ التي ينطلقُ منها البحثُ العلميُّ الأصيلُ بما يقودُ إليه من تقدّمِ العلمِ وتطوّرِ تطبيقاتِه " (٢١).

واللغةُ العربيّةُ ليستْ قضيّةً لغويّةً أو إملائيّةً أو نحْويّةً، وإنَّما جسمٌ متعاضدٌ تسكنُه روحٌ، إذْ لا فائدةَ للأعضاءِ دونَها،

واللغةُ روحُ الأمّة، إذا غابتْ غابتِ الأمّةُ.

وهناك لغاتٌ ميّتةٌ كما يقولُ الأسدُ عملَ أصحابُها على إنعاشها وجعلوها لغةً للتّدريس والبحث العلميّ. كما هي الحالُ مع اللغة العبريّة التي أصبحتْ حيّةً، وبلْ لغةً علميّةً أيضاً. في حين أنَّ اللغةَ العربيَّةَ حيّةٌ، وهناكَ مَن يحاولُ طمْسَها وإخمادَها (٢٢).

واللغةُ العربيّةُ ناميةٌ، وقادرةٌ على الجمع بينَ الثوابتِ والمتغيّرات: الأصولِ والفروعِ، كما هي الثقافةُ التي تجمعُ بينَ الثابتِ والمتغيّرِ(٢٣)، أمّا أنْ تبقى اللغةُ أو الثّقافةُ معتمدةً في النّهلِ على معينها دونَ روافدَ - في خِضَمِّ هذا البركانِ من المصطلحاتِ والمنجزاتِ العلميّةِ واستحداثِ الأساليبِ- فإنّ معينَها سيصابُ بالجفافِ ثمّ ينضُبُ، والمقصودُ هنا ليسَ نفادَ الكلماتِ ودلالاتها؛ وإنّما فقدانُ موطئِ القدمِ بينَ اللغاتِ العلميّةِ العالميّةِ كالإنجليزيّةِ والفرنسيّةِ والألمانيّةِ. ولعلَّ ما يميّزُ اللغةَ العربيَّةَ ويجعلُها مهيأةً؛ لأنْ تكونَ لغةً علميّةً؛ اتسامُها بالليونةِ في استقبالِ المصطلحاتِ العلميّةِ بعد إخضاعها لمقاييسَ وطرقٍ خاصّةٍ في التّعريب. كما أنّها تتّسمُ بمزيةِ الاشتقاقِ.

ويوجد لغاتٌ قويّةٌ خشيتْ على نفسها من الدّخيلِ عليها بسببِ العولمةِ والتّسارعِ في الإنجازِ كاللغةِ الفرنسيّةِ، حيثُ قامتْ الحكومةُ الفرنسيّةُ بتنقيتها من الكلماتِ والتّعبيراتِ الأجنبيّةِ الدّخيلةِ وخاصّةً الإنجليزيّةَ (٢٤).

تعدُّ اللغةُ العربيّةُ حاضنةً للتُّراثِ والفكرِ والهُويّةِ، ومنافحةً عنها، فالتُّراثُ لا يحيا إلّا باللغةِ، والإنسانُ لا يُعرَفُ إلا من لغتِه، وأيُّ أمّةٍ لا ترتقي إلاّ بعلومِها وفكرِها.

" والفكرُ هو اللغةُ؛ لأنّنا لا نستطيعُ أنْ نفكّرَ في شيءٍ بغيرِ لغةٍ، أيْ بغيرِ اسمِ لذلكَ الشّيءِ حتّى ولو كانَ في الغيبيّاتِ أوْ الأساطيرِ أو الخرافاتِ"(٢٥).

إنَّ تأثرَ أيِّ لغةٍ وتداخلَها بأخرى لأمرٌ حيويٌّ وضروريٌّ شريطةَ أنْ يكونَ هذا التّداخلُ والتّأثرُ مؤصّلاً له عبْرَ قنواتٍ علميّةٍ رصينةٍ، لا عبْرَ الألفاظِ المتسللةِ إلينا من الشّارعِ والمقهى والقطارِ. إذْ تجعلُ المصاهرةُ والنّسبُ بين اللغاتِ الإنسانيّةِ المجتمعاتِ أكثرَ تقارباً وتعاوناً وفَهْماً للآخرِ، وبالتّالي فنقلُ الفكرِ والعاداتِ والمعتقداتِ والعلومِ المختلفةِ يكونُ أيسرَ، وتبادلُ الخبراتِ يكونُ أعمَّ وأشملَ؛ ممّا يؤدي إلى الإفادةِ من الأساليبِ المختلفةِ في تدريسِ اللغاتِ، وسبلِ توظيفها في البحثِ العلميّ، وإلى تماسكِ لُحمةِ العلاقةِ بينَ هذه المجتمعاتِ التي تحتاجُ إلى مثلِ هذه العلاقةِ، وإلا كيفَ نفسّرُ ما أثبتَتْه زيغريد هونيكه في كتابها (شمسُ العربِ تسطعُ على الغربِ) حولَ عددِ الكلماتِ الألمانيّةِ التي تتحدرُ من أصولٍ عربيّةٍ أو فارسيّةٍ؟ إذْ وصلتْ إلى (١٩٩: مئةٍ وتسعٍ وتسعين) كلمةً. منها، شطرنجٌ، وجُبّةٌ، وهناكَ ثَبْتٌ آخرُ- يتْبعُه- بأسماءِ كواكبَ عربيّةِ الأصلِ بلغَ عددُها (٤٦: ستّاً وأربعين) كلمةً. منها، رأسُ الجوزاءِ، والجدي؛ إذْ لم يتجلَّ هذا الأمرُ إلا من خلالِ الاحتكاكِ والتفاعلِ بينَ المجتمعاتِ؛ ممّا يفضي إلى اكتشافِ الآخرِ وفهمِه، والإفادةِ منه.

كلُّ هذا لا يتأتّى إلا باللغةِ. والإنسانُ العربيُّ مهما أنجزَ باللغةِ الأجنبيّةِ سيبقى فهمُ الآخرِ له منقوصاً؛ لأنَّ هناك الكثيرَ من الإبداعاتِ تختفي تحت عباءةِ التّرجمةِ والنّقلِ.

من أقوالِ المستشرقين في اللغةِ العربيةِ

هناك الكثيرُ من أقوالِ المستشرقين التي تجلو ولو جزءاً من الشّكوكِ في ضعفِ لغتنا، وعدمِ قدرتها على مجاراةِ التّقدّمِ الحضاريِّ والبحثِ العلميِّ، وأرى أنّها تدعمُ الأسدَ فيما ذهبَ إليه، من تكرارِ دعواتِه إلى تعريبِ التّعليمِ الجامعيِّ، منها:

١- المستشرقُ الأمريكيُّ (كوتهيل): قلَّ منّا نحنُ الغربيين مَنْ يقدّرُ اللغةَ العربيَّةَ حقَّ قدْرِها من حيثُ أهميتُها وغناها، فهي بفضلِ تاريخِ الأقوامِ التي نطقتْ بها، وبداعي انتشارِها في أقاليمَ كثيرةٍ، واحتكاكِها بمدنيّاتٍ مختلفةٍ، قد نمتْ إلى أنْ أصبحتْ لغةً مدنيَّةً بأسرِها بعدَ أنْ كانتْ لغةً قبليَّةً. لقد كان للعربيَّةِ ماضٍ مجيدٌ، وفي تقديري سيكونُ لها مستقبلٌ باهرٌ.

٢- المستشرقُ الألمانيُّ (كارل بروكلمان): بلغت العربيَّةُ بفضلِ القرآنِ من الاتّساعِ مدىً لا تكادُ تعرفُه أيُّ لغةٍ أخرى من لغاتِ الدُّنيا.

٣- المستشرقُ الفرنسيُّ (رينان): إنّ من أغربِ المدهشاتِ أنْ تنبتَ تلكَ اللغةُ القوميّةُ، وتصلَ إلى درجةِ الكمالِ وسْطَ الصَّحاري عند أمّةٍ من الرُّحَّلِ، تلكَ العربيّةُ التي فاقتْ أخواتِها بكثرةِ مفرداتها ودقّةِ معانيها.

٤- المستشرقُ الألمانيُّ (أوغست فيشر): " وإذا استثنينا الصّينَ فلا يوجدُ شعبٌ آخرُ يحقُّ له الفخرُ بوَفْرةِ كتبِ علومِ لغتِه غيرُ العربِ" (٢٦).

٥- المستشرقُ الأمريكيُّ (وليام ورل): إنَّ

للغة العربيَّة من اللِّين والمرونة ما يمكِّنانها من التكيُّف وَفقَ مقتضيات العصر، وهي لمْ تتقهقرْ فيما مضى أمامَ أيِّ لغة أخرى من اللغات التي احتكَّتْ بها، وهي ستحافظُ على كيانها في المستقبل كما حافظتْ عليه في الماضي.

٦- المستشرقُ الفرنسيُّ (وليام مرسيه): شبّه العبارةَ العربيّةَ كالعود، إذا نَقَرْتَ على أحد أوتاره رنّتْ لديكَ الأوتارُ جميعُها، وخفقتْ، ثم تُحرِّكُ اللغةُ في أعماق النّفس من وراء حدود المعنى المباشر موكباً من العواطف والصُّور.

٧- المستشرقُ الألمانيُّ (يوهان فوك): لقد برهنَ جبروتُ التُّراث العربيِّ الخالد على أنّه أقوى من كلِّ محاولة يُقصدُ بها زحزحةُ العربيَّة الفصحى عن مقامها المسيطر. وعندما سُئلت المستشرقةُ الألمانيّةُ (زيغريد هونيكه) عن جمال العربيّة وسحرها قالت: كيفَ يستطيعُ الإنسانُ أنْ يقاومَ جمالَ هذه اللغة ومنطقَها السّليمَ وسحرَها الفريدَ ؟

٨- المستشرقُ الفرنسيُّ (لويس ماسينون): اللغةُ العربيّةُ هي التي أدخلتْ في الغرب طريقةَ التَّعبير العلميِّ، والعربيَّةُ من أنقى اللغات، فقد تفرَّدتْ في طرق التَّعبير العلميِّ والفنيِّ والصُّوفيِّ.

٩- المستشرقُ الهولنديُّ (رينهارت دوزي): يقولُ في كتابه (الإسلامُ الأندلسيُّ): إنّ أربابَ الفطنة والتَّذوُّق من النَّصارى سحرَهم رنينُ الأدب العربيِّ، فاحتقروا اللاتينيّةَ، وصاروا يكتبون بلغة قاهريهم دونَ غيرهم.

ويمكنُ أنْ نرى أدلةً كثيرةً تتعلقُ بالجانب التّطبيقيِّ، وتبيّنُ أهميّةَ اللغة العربيّة، من ذلك مراكزُ تعليم اللغة العربيَّة للنَّاطقين بغيرها التي تنتشرُ في أرجاء الوطن العربيِّ، وكذلك الإقبالُ الشّديدُ على تعلُّم العربيَّة من الأوروبيّين والأمريكيِّين والآسيويِّين، وانتشارُ الجامعات التي تدرِّسُ اللغةَ العربيّةَ، منها جامعةُ السُّوربون وجامعةُ لندن وجامعةُ هايدلبيرغ وجامعةُ توبينجن، وجامعةُ برلين وجامعةُ متشيغان وغيرُها؛ إذْ تمنحُ معظمُ هذه الجامعات درجتَي الماجستيرَ والدُّكتوراه في اللغة العربيّة.

إضافةً إلى ما أشارَ إليه الأسدُ من إطلاق بعض الفضائيّات باللغة العربيّة في الغرب كفضائية الحرّة في الولايات المتحدة الأميركيّة، ويعدُّها دليلاً "على قيمة اللغة العربيّة وتأثيرها وإلا ما تكلّفوا إنشاءَها"(٢٧). وهذا الاهتمامُ باللغة العربيَّة من الآخَر يقابلُه عُزوفٌ كبيرٌ عنها من الأنا.

وختاماً:

أرى أنَّ اللغةَ العربيّةَ في عصرنا جرابٌ فضفاضٌ على إنجازاتنا العلميَّة؛ بينما بعضُ اللغات الأجنبيَّة لباسٌ ضاقَ على حجم إنجازاتها الكبير، فاضطرَّتْ إلى التَّمدُّد والتكيُّف مع حجم هذا الإنجاز، ومع ذلك تبقى اللغةُ العربيّةُ كالمصباح محافظاً على مكوناته ونظام تشغيله، وبمجرّد الضّغط على المفتاح سُرعانَ ما يتوهَّجُ، وبيننا وبين الضَّغط عليه صحراءُ بلقع !! التي لا يمكنُ طيُّها إلَّا بالعزيمة والإصْرار.

هوامشُ البحث

١- صلاح جرَّار، جهود العلامة الراحل ناصر الدين الأسد في خدمة العربية، جريدة الدستور، ١٥-٩-٢٠١٥.

٢- صلاح جرَّار، جهود العلامة الراحل ناصر الدين الأسد في خدمة العربية، جريدة الدستور، ١٥-٩-٢٠١٥.

٣- ناصر الدين الأسد، تجديد الفكر، ندوة الجامعة الأردنية، ٢٠١٢.

٤- ينظر: ميّ مظفر، ناصر الدين الأسد جسر بين العصور، ص٧١.

٥- صلاح جرَّار، جهود العلامة الراحل ناصر الدين الأسد في خدمة العربية، جريدة الدستور، ١٥-٩-٢٠١٥.

٦- صلاح جرَّار، جهود العلامة الراحل ناصر الدين الأسد في خدمة العربية، جريدة الدستور، ١٥-٩-٢٠١٥.

٧- ينظر: ميّ مظفر، ناصر الدين الأسد جسر بين العصور، ص٤٨.

٨- ناصر الدين الأسد، تجديد الفكر، ندوة الجامعة الأردنية، ٢٠١٢.

٩- صلاح جرَّار، جهود العلامة الراحل ناصر الدين الأسد في خدمة العربية، جريدة الدستور، ١٥-٩-٢٠١٥.

١٠- ينظر: ناصر الدين الأسد، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ص ٦ - محاضرة ألقيت في منتدى عبد الحميد شومان الثقافي بتاريخ: ٧-٥-٢٠٠٧.

١١- ينظر: ناصر الدين الأسد، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ص ٧.

١٢- ينظر: ناصر الدين الأسد، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ص٩.

١٣- ينظر: ناصر الدين الأسد، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ص١٠.

١٤- ناصر الدين الأسد، المثقفون العرب والتواصل بين الحضارات، مجلة العربي، ص ٣٤.

١٥- سورة الحجرات، آية ١٣.

١٦- ناصر الدين الأسد، المثقفون العرب والتواصل بين الحضارات، مجلة العربي، ص ٣٤.

١٧- ناصر الدين الأسد، المثقفون العرب والتواصل بين الحضارات، مجلة العربي، ص ٣٢.

١٨- وحيد تاجا، لقاء مع ناصر الدين الأسد، تيسير النَّحْو واللغة، منشورات دار الفكر، www.fiker.com

١٩- ينظر: ناصر الدين الأسد، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ص١٨.

٢٠- ناصر الدين الأسد، المثقفون العرب والتواصل بين الحضارات، مجلة العربي، ص ٣٤.

٢١- ناصر الدين الأسد، تصوّرات إسلامية في التعليم الجامعي والبحث العلمي، ص٦٧.

٢٢- وحيد تاجا، لقاء مع ناصر الدين الأسد، تيسير النَّحْو واللغة، منشورات دار الفكر، www.fiker.com

٢٣- ناصر الدين الأسد، تحقيقات في اللغة والأدب، ص ٢٧٥.

٢٤- ينظر: ناصر الدين الأسد، مقدمة لدراسة اللغة وهُوية الأمَّة، ندوة منتدى عبد الحميد شومان الثقافي، ص٧.

٢٥- أحمد زهير رحاحلة، محاورة مع الأسد، مجلة رسالة المعلم، مجلد ٥١، عدد ١، تشرين أول، ٢٠١٣.

٢٦- أوغست فيشر، المعجم اللغوي العربي، مقدمة القسم الأول.

٢٧- ناصر الدين الأسد، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ص١٧.

مراجـعُ البحـــثِ

- القرآن الكريم

أولاً- الأسد، ناصر الدين:

١- تجديد الفكر: ندوة الجامعة الأردنية، ٢٠١٢.

٢- تحقيقات في اللغة والأدب، عمان، دار أروقة، ط١، ٢٠١٣.

٣- تصوُّرات إسلامية في التعليم الجامعي والبحث العلمي، عَمَّان، المطابع التعاونية، ط١، ١٩٩٣.

٤- المثقفون العرب والتواصل الاجتماعيُّ، مجلة العربيُّ، عدد ٥٣٣، آذار ٢٠٠٣.

٥- مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، ندوة منتدى عبد الحميد شومان، ٢٠٠٧.

٦- مقدمة لدراسة اللغة وهُوية الأمَّة، ندوة منتدى عبد الحميد شومان الثقافي، ٢٠٠٤.

ثانياً- تاجا، وحيد، لقاء مع الدكتور ناصر الدين الأسد، تيسير النَّحْو واللغة أمر مطلوب شرط أن لا يكون باباً للهدم، منشورات دار الفكر، www.fiker.com

ثالثاً- جرَّار، صلاح، جهود العلامة الرَّاحل ناصر الدين الأسد في خدمة اللغة العربية، جريدة الدستور، ١٥-٩-٢٠١٧.

رابعاً- رحاحلة، أحمد زهير، لقاء مع الأسد، مجلة رسالة المعلم، مجلد ٥١، عدد١، تشرين أول، ٢٠١٣.

خامساً- فيشر، أوغست، المعجم اللغوي العربي، القاهرة، مجمع اللغة العربية العربية، ط١، ١٩٦٧.

سادساً- مظفر، ميّ، ناصر الدين الأسد جسر بين العصور، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ٢٠٠٠.